علوم القرآن

المُحْكَم والمُتشابه

1- تمهيد:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧).

من هذه الآية يتضح وجود المُحْكَم والمتشابه في القرآن الكريم، فما هو «المحْكم»؟ وما هو «المتشابه»؟

2- تعريف المحْكَم:

هو النصّ الواضح الدلالة على معناه، بحيث لا يحتاج في فهمه إلى التأويل. وقيل: هو ما أحْكِم بالأمر، والنهي، وبيان الحلال والحرام. وقيل: هو الناسخ، وقيل: هو الفرائض، والوعد، والوعيد. وقيل: هو ما يُعرف عند سماعه. والقول الأوّل هو الأصحّ.

ومن الآيات المحكمات قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: ١)، وقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ (الحشر: ٢٣).

3- تعريف المتشابه:

هو ما لا يُفهم معناه إلا بالتأويل، وقد يدلّ لفظه على أكثر من معنى واحد. وقيل: هو المنسوخ الذي لا يُعْمل به، وقيل: القصص، والأمثال. وقيل: فواتح السُّوَر. وقيل: ما يحتمل وجوهًا في حين أنَّ المحكم لا يحتمل إلاّ وجهًا واحدًا وذلك كقوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥)، وقوله: ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٥٦)، وقوله: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ٢١٠)، وقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ (الفجر: ٢٢)، وكالآيات التي تتناول صفات الله، وأمورًا غيبيّة لا يمكن الوصول في فهمها إلى رأي قاطع.

4- قدرة العلماء على إدراك معنى المتشابه:

رأي بعض المفسّرين أنّ الواو في «والراسخون» من قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧)، تدلّ على العطف، فيُفسِّرون الآية بأنَّ الله والراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه.

ويذهب مفسّرون آخرون إلى أنَّ الواو هنا للاستئناف، ومعنى الآية: لا يعلم تأويله إلا الله؛ أمّا الراسخون بالعلم فيقولون آمنّا به.

ومن هذين التفسيرين نشأ فريقان من العلماء:

فريق توقّف أمام الآيات المتشابهات، وامتنع عن محاولة تأويلها. ونُقِل الامتناع من التأويل عن بعض الصحابة، وعلماء السَّلَف. فأمّ سلمة تحدّثت عن الاستواء في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥)، فقالت: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. وسُئل الإمام مالك في هذا الأمر، فأجاب بما أجابت به أم سلمة،

وأضاف: من عاد إلى مثل هذا السؤال أضرب عنقه[1]. وسُئل سفيان الثوري فيه، فقال: أفهم من قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥)، ما أفهم من قولـــــــــه: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] (فصلت: ١١).

وفريق قال بالتأويل، ومنهم المعتزلة ومتكلمو السُّنّة، وقد نُقِل التأويل عن الإمام علي، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم.

فهذا الفريق يُعظِّم شأن العقل، ويرى أنَّ الشرائع جاءت مطابقة لما اهتدت إليه العقول، فلا يقبل التوقّف عند النصّ من غير محاولة إدراك معناه، فيقولون في تأويل قوله تعالى: ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ ﴾ (المائدة: ١١٦)، إنَّ النفس هنا هي الغيب. ويقولون في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (الأنعام: ٣) إنّه المعبود في السموات، والأرض، أو إنّه العالِم بما فيهما. ويقولون في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ (البقرة: ٢٥٥): «لم يرد سبحانه بنفي النوم، والسِّنة عن نفسه إثبات اليقظة، والحركة، لأنه لا يُقال لله تعالى: «يقظًا»، ولا «نائمًا» لأنّ اليقظان لا يكون إلاّ عن نوم. ولا يجوز وصف القديم به، وإنّما أراد بذلك نفْي الجَهْل، والغفلة»[3].

وكذلك يؤوّلون ما نُسِب لله من معانٍ حسيّة، كقوله: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن: ٢٧)، وقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ ﴾ (المائدة: ٦٤) إلى معانٍ غير جسديّة.

---

[1]- البرهان في علوم القرآن 78/2.
[2]- البرهان في علوم القرآن 78/2.
[3]- المصدر نفسه، 85/2.

5- الحكمة من وجوه المتشابه في القرآن:

إنَّ الحكمة من وجود المتشابه في القرآن تتمثّل في:

1- إن الله احتج على العرب بالقرآن، إذ كان فخرهم، ورياستهم بالبلاغة، وحسن البيان والاختصار، والإطناب. وكان كلامهم على ضربين: أحدهما: الواضح الموجز الذي لا يخفى على صاحبه، ولا يحتمل غير ظاهرة. والآخر على المجاز، والكنايات، والإشارات، والتلويحات. وهذا الضرب هو المستحلى عندهم، الغريب من ألفاظهم، البديع في كلامهم. فلما قرعهم الله سبحانه، فعجزهم عن المعارضة بمثل سوره، أو سورة منه أنزله على الضربين ليصح العجز منهم، وتتأكد الحجج، ولزومها إياهم. فكأنه قال: عارضوا محمدًا في أي الضربين شئتم، في الواضح، أو في المشكل. ولم يقدروا عليه.

2- في الآيات المتشابهة اختبار لموقف المؤمن الذي يتقبل ما جاء بهذه الآيات، ويردها إلى عالمها في حالة العجز عن إدراك معناها، في حين أن المنافق يتخذ من المتشابه سبيلاً إلى بث عقائده الفاسدة، عن طريق التأويل السيّئ.

3- في المتشابه حثٌ للعلماء على التدبر، والتأمل. وهؤلاء ينهضون بالتأويل، وينتفع العامة بعلمهم، ولو كان كله واضحًا محكمًا لاستوى فيه العالم، والجاهل.

4- في المتشابه من الآيات تدريب لعلماء الأمة على التدبر، والتأمل، واستدعاء لهم لمداومة التفكر.

5- في المتشابه اختبار يكشف عن المؤمنين الراسخين في الإيمان، وعن أهل العقيدة المتزعزعة. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ (البقرة: ٢٦)[4].

✲ ✲ ✲

[4]- كتاب المباني، ص 177- 182. وقد أخذناه عن «في علوم القرآن» ص 129 – 130.